

## القواعد التى يحتاج إليها المفسر

لا بد فى تناول أى علم من العلوم من معرفة أسسه العامة ومميزاته الخاصة حتى يكون الطالب له على بصيرة ، وبقدر ما يتمكن الإنسان من آلة العلم بقدر ما يحرز من نصر فيه ، حيث يلج فصوله من أبوابها وقد أعطى مفاتيحها ، وإذا كان القرآن الكريم قد نزل بلسان عربى مبین : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (١) ، فإن القواعد التى يحتاج إليها المفسر فى فهم القرآن تركز على قواعد العربية ، وفهم أسسها ، وتذوق أسلوبها ، وإدراك أسرارها ، ولذلك كله فصول متناثرة ، ومباحث مستفيضة فى فروع العربية وعلومها ، إلا أننا نستطيع أن نجمع موجزاً لأهم ما يجب معرفته فى الأمور الآتية :

\* \* \*

### ١ - الضمائر

للضمائر قواعدها اللغوية التى استنبطها علماء اللُّغة ، من القرآن الكريم ، ومن مصادر العربية الأصيلة ، ومن الحديث النبوى ، ومن كلام العرب الذين يُستشهد بكلامهم نظماً ونثراً ، وقد ألف ابن الأنبارى (٢) فى بيان الضمائر الواقعة فى القرآن مجلدين (٣) .

وأصل وضع الضمير للاختصار ، فهو يُغنى عن ذكر ألفاظ كثيرة ، ويحل محلها مع سلامة المعنى وعدم التكرار ، فقد قام فى قوله تعالى : ﴿ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً

(١) يوسف : ٢

(٢) هو أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى ، كان له عناية باللُّغة ويعلم القرآن ، توفى سنة ٣٢٨ هجرية .

(٣) انظر : « الإتيقان » ( ١٨٦/١ ) .

وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿١﴾ مقام عشرين كلمة لو أتى بها مظهره ، هي المذكورة في صدر الآية : ﴿ إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (٢)

والأصل تقديم مفسر لضمير الغائب . . ويعلل النحاة هذا الأصل بأن ضمير المتكلم والمخاطب يفسرهما المشاهدة ، وضمير الغائب عار عن هذا الوجه من التفسير ، فكان الأصل تقديم معاده ليعلم المراد بالضمير قبل ذكره ، ولذلك قالوا : يمنع عود الضمير على متأخر لفظًا ورتبة ، واستثنوا من هذه القاعدة مسائل يرجع فيها الضمير إلى ما استغنى عن ذكره بما يدل عليه من قرائن في نفس اللفظ ، أو أحوال أخرى تحف بمقام الخطاب (٣) ، قال ابن مالك في « التسهيل » : « الأصل تقديم مفسر ضمير الغائب ، ولا يكون غير الأقرب إلا بدليل ، وهو إما مصرح به بلفظه ، أو مستغنى عنه بحضور مدلوله حسًا أو علمًا ، أو يذكر ما هو له جزء أو كل أو نظير أو مصاحب بوجه ما » .

وعلى هذا فالمرجع الذي يعود إليه ضمير الغيبة ، يكون ملفوظًا به سابقًا عليه مطابقًا له - وهذا هو الكثير الغالب - كقوله تعالى : ﴿ وَنَادَى نُوحٌ ابْنَهُ ﴾ (٤)

(١) الأحزاب : : ٣٥ (٢) الأحزاب : ٣٥

(٣) ألقى الدكتور طه حسين في مؤتمر المستشرقين السابع عشر بجامعة أكسفورد سنة ١٣٤٧ هجرية محاضرة عنوانها : « ضمير الغائب واستعماله اسم إشارة في القرآن » نشرتها مجلة الرابطة الشرقية ، جاء فيها : إن ضمير الغائب يجب أن يعود إلى مذكور بتقدمه لفظًا ورتبة - يطابق هذا المذكور في التذكير والتأنيث وفي الأفراد والتثنية والجمع ، وأن ما ورد على خلاف ذلك تألوله بتكلف ، وأوضح هذا بأمثلة من القرآن ، وقد رد عليه الأستاذ محمد الخضر حسين ، انظر : « بلاغة القرآن » (ص ٦٤ وما بعدها) .

(٤) هود : ٤٢

أو يكون ما سبق متضمناً له ، كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ، وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ، اْعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (١) .

فإن ضمير « هو » يعود على العدل الذى يتضمنه لفظ « اعدلوا » أى أن العدل أقرب للتقوى - أو دالاً عليه بالتزام كقوله : ﴿ فَمَنْ عَفَىٰ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ﴾ (٢) فالضمير فى « إليه » يعود على العافى الذى يستلزمه « عفى » .

وقد يكون المرجع متأخراً لفظاً لا رتبة كقوله : ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ ﴾ (٣) ، أو لفظاً ورتبة كما فى باب ضمير الشأن والقصة ونعم وبئس كقوله : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ (٤) ، وقوله : ﴿ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ بئسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ (٦) ، وقوله : ﴿ سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ ﴾ (٧) ، أو متأخراً دالاً عليه كقوله : ﴿ فَلَوْلَا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلُقُومَ ﴾ (٨) فضمير الرفع مضمير يدل عليه « الحلقوم » ، والتقدير : فلولا إذا بلغت الروح الحلقوم - أو مفهوماً من السياق كقوله : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (٩) أى على الأرض ، وقوله : ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ﴾ (١٠) أى القرآن ، وقوله : ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ (١١) أى النبى ﷺ ، وقوله : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ﴾ (١٢) فالواو فى « يقولون » للمشركين ، وفاعل « افترى » للنبى ﷺ ، ومفعوله للقرآن .

وربما عاد الضمير على اللفظ دون المعنى كقوله : ﴿ وَمَا يَعْمَرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقِصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ﴾ (١٣) فالضمير فى « عمره » المراد به عمر معمر

(١) المائدة : ٨	(٢) البقرة : ١٧٨	(٣) طه : ٦٧
(٤) الإخلاص : ١	(٥) الأنبياء : ٩٧	(٦) الكهف : ٥٠
(٧) الأعراف : ١٧٧	(٨) الواقعة : ٨٣	(٩) الرحمن : ٢٦
(١٠) القدر : ١	(١١) عبس : ١	(١٢) هود : ١٣
(١٣) فاطر : ١١		

آخر ، قال الفراء : يريد آخر غير الأول ، فكنى عنه بالضمير كأنه الأول ، لأن لفظ الثاني لو ظهر كان كالأول ، كأنه قال : ولا ينقص من عمر معمر ، فالكتابة في عمره ترجع إلى آخر غير الأول ، ومثله قولك : عندي درهم ونصفه ، أى نصف آخر « (١) » .

وربما عاد الضمير على المعنى فقط كقوله : ﴿ يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ ، إِنْ أَمْرُو هَلْكَ لَيْسَ لَهُ وَكَدُّهُ أَلْهَى فَلَهَا نِصْفٌ مِمَّا تَرَكَ ، وَهُوَ يَرِثُهَا إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا وَكَدٌّ ، فَإِنْ كَانَتْ أَثْنَتَيْنِ ﴾ (٢) فالضمير فى « كانتا » لم يتقدم لفظ تثنية يعود عليه ، لأن الكلالة تقع على الواحد والاثنين والجمع ، فثنى الضمير الرجوع إليها حملاً على المعنى ، وقوله : ﴿ وَأَتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ، فَإِنْ طَبِنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا ﴾ (٣) فالضمير فى « منه » يعود على معنى الصدقات ، لأنه فى معنى الصداق ، أو ما أصدق ، كأنه قيل : وآتوا النساء صدقاتهن ، أو ما أصدقتموهن .

وقد يؤتى بالضمير أولاً ثم يخبر عنه بما يفسره ، كقوله : ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا ﴾ (٤) .

وقد يثنى الضمير ويعود على أحد المذكورين كقوله : ﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴾ (٥) ، وإنما يخرج من أحدهما ، وهو الملح دون العذب ، لأنه إذا خرج من أحدهما فقد خرج منهما ، وبهذا قال الزجاج وغيره .

وقد يعود على ملابس ما هو له كقوله : ﴿ لَمْ يَلْبَسُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا ﴾ (٦) أى ضحى يومها لا ضحى العشيّة ، لأن العشيّة لا ضحى لها .

وقد يراعى فى الضمير اللفظ أولاً ، ثم يراعى المعنى ثانياً ، كقوله : ﴿ وَمَنْ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَيَالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ (٧) ، أفرد

(١) راجع كتب التفسير فى ذلك . (٢) النساء : ١٧٦ (٣) النساء : ٤

(٤) الأنعام : ٢٩ (٥) الرحمن : ٢٢ (٦) النازعات : ٤٦

(٧) البقرة : ٨

الضمير فى « يقول » باعتبار لفظ « من » ثم جمع فى « وما هم » باعتبار معناه .

\* \* \*

## ٢ - التعريف والتنكير

للتنكير مقامات : منها : إرادة الوحدة كقوله : ﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَى ﴾ (١) أى رجل واحد - أو إرادة النوع كقوله : ﴿ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ ﴾ (٢) أى نوع من الحياة ، وهو طلب الزيادة فى المستقبل ، لأن الحرص لا يكون على الماضى ولا على الحاضر - أو هما معاً كقوله : ﴿ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّنْ مَّاءٍ ﴾ (٣) أى كل نوع من أنواع الدواب من أنواع الماء ، وكل فرد من أفراد الدواب من فرد من أفراد النطف - أو التعظيم كقوله : ﴿ فَأَذْنُونا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ ﴾ (٤) أى حرب عظيمة - أو التكثر كقوله : ﴿ أَأَنْ لَّنَا لِأَجْرًا ﴾ (٥) أى أجراً وافراً - أو هما معاً كقوله : ﴿ وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ رُسُلٌ مِّنْ قَبْلِكَ ﴾ (٦) أى رسل عظام ذوو عدد كثير - أو التحقير كقوله : ﴿ مِنْ أَى شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾ (٧) أى من شىء هين حقير مهين - أو التقليل كقوله : ﴿ وَعَدَّ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ﴾ (٨) أى رضوان قليل منه أكبر من الجنات لأنه رأس كل سعادة .

وأما التعريف فله مقامات تختلف باختلاف كل نوع من أنواع التعريف .

ويكون بالإضمار لأن المقام مقام المتكلم ، أو الخطاب ، أو الغيبة وبالعلمية لإحضاره بعينه فى ذهن السامع ابتداء باسم يخصه - أو لتعظيمه كقوله : ﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ﴾ (٩) ، أو إهانتته كقوله : ﴿ تَبَّتْ يَدَا

---

(١) القصص : ٢٠	(٢) البقرة : ٩٦	(٣) النور : ٤٥
(٤) البقرة : ٢٧٩	(٥) الشعراء : ٤١	(٦) فاطر : ٤
(٧) عبس : ١٨	(٨) التوبة : ٧٢	(٩) الفتح : ٢٩

أَبَى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴿١﴾ ، وبالإشارة لبيان حاله فى القرب كقوله : ﴿ هَذَا خَلَقُ اللَّهِ ، فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ﴾ (٢) ، أو لبيان حاله فى البعد كقوله : ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٣) ، أو لقصد تحقيره بالقرب كقوله : ﴿ وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَهُوٌّ وَلَعِبٌ ﴾ (٤) ، أو لقصد تعظيمه بالبعد كقوله : ﴿ ذَلِكَ الْكِتَابُ ، لَا رَيْبَ فِيهِ ﴾ (٥) ، أو التنبيه على أن المشار إليه المعقب بأوصاف جدير بما يرد بعده من أجلها كقوله : ﴿ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ \* الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ \* وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ \* أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٦) ، وبالموصول لكرامة ذكره باسمه سترًا عليه ، أو غير ذلك كقوله : ﴿ وَالَّذِي قَالَ لَوْلَاذِيهِ أَفْ لَكُمْ ﴾ (٧) ، وقوله : ﴿ وَرَأَوْدَتُهُ لَتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ ﴾ (٨) ، أو لإرادة العموم كقوله : ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ﴾ (٩) ، أو الاختصار كقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّاهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا ﴾ (١٠) ، إذ لو عدَّد أسماء القائلين لطلال الكلام - وبالألف واللام للإشارة إلى معهود ذكرى ، كقوله : ﴿ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ، مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ، الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾ (١١) ، أو معهود ذهنى كقوله : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ (١٢) ، أو معهود حضورى كقوله : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ﴾ (١٣) ، أو لاستغراق الأفراد كقوله : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ

(٣) البقرة : ٥

(٢) لقمان : ١١

(١) المسد : ١

(٦) البقرة : ٢ - ٥

(٥) البقرة : ٢

(٤) العنكبوت : ٦٤

(٩) العنكبوت : ٦٩

(٨) يوسف : ٢٣

(٧) الأحقاف : ١٧

(١٢) الفتح : ١٨

(١١) النور : ٣٥

(١٠) الأحزاب : ٦٩

(١٣) المائدة : ٣

لَفِي خُسْرٍ ﴿١﴾ ، بدليل الاستثناء - أو لاستغراق خصائص الأفراد كقوله : ﴿ذَلِكَ  
الْكِتَابُ﴾ ﴿٢﴾ ، أى الكتاب الكامل فى الهداية الجامع لجميع صفات الكتب المنزلة  
بخصائصها ، أو لتعريف الماهية والحقيقة والجنس ، كقوله : ﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ  
شَيْءٍ حَيٍّ﴾ ﴿٣﴾ .

وإذا ذُكِرَ الاسم مرتين فله أربع أحوال ، لأنه إما أن يكونا معرفتين ، أو نكرتين ،  
أو الأول نكرة والثانى معرفة ، أو بالعكس .

١ - فإن كانا معرفتين فالثانى هو الأول غالباً كقوله : ﴿اهدِنَا الصِّرَاطَ  
الْمُسْتَقِيمَ \* صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ﴿٤﴾ .

٢ - وإن كانا نكرتين فالثانى غير الأول غالباً كقوله : ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ  
ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ ﴿٥﴾ ،  
فإن المراد بالضعف الأول النطفة ، وبالثانى الطفولية ، وبالثالث الشيخوخة ،  
وقد اجتمع القسمان فى قوله تعالى : ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا \* إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ  
يُسْرًا﴾ ﴿٦﴾ ولذلك روى عن ابن عباس : « لن يغلب عسر يسرين » ، لأن العسر  
الثانى أعاده بـ « ال » ، فكان عين الأول ، ولما كان اليسر الثانى غير الأول لم يعده  
بـ « ال » .

٣ - وإن كان الأول نكرة ، والثانى معرفة ، فالثانى هو الأول حملاً على  
العهد ، كقوله : ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا \* فَعَصَىٰ فِرْعَوْنُ  
الرَّسُولَ﴾ ﴿٧﴾ .

٤ - وإن كان الأول معرفة ، والثانى نكرة ، توقف المراد على القرائن ، فتارة  
تقوم قرينة على التغاير ، كقوله : ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا

(١) العصر : ٣	(٢) البقرة : ٢	(٣) الأنبياء : ٣٠
(٤) الفاتحة : ٦ - ٧	(٥) الروم : ٥٤	(٦) الشرح : ٥ - ٦
(٧) المزمل : ١٥ - ١٦		

غَيْرِ سَاعَةٍ ﴿ (١) ، وتارة تقوم قرينة على الاتحاد ، كقوله : ﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ \* قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴿ (٢) .

\* \* \*

### ٣ - الإفراد والجمع

بعض ألفاظ القرآن يكون إفراده لمعنى خاص ، وجمعه لإشارة معينة ، أو يؤثر جمعه على إفراده أو العكس .

فمن ذلك أننا نرى بعض الألفاظ لم يأت في القرآن إلا مجموعاً ، وعند الاحتياج إلى بصيغة المفرد ، يستعمل مرادفه كلفظة « اللب » فإنها لم ترد إلا مجموعة كقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ (٣) ولم يجيء في القرآن مفردة ، بل جاء مكانه « القلب » كقوله : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ ﴾ (٤) ، ولفظة « الكوب » لم تأت مفردة وقد أتى الجمع : ﴿ وَأَكْوَابٌ مَوْضُوعَةٌ ﴾ (٥) .

وعكس هذا النوع ألفاظ لم تأت إلا مفردة في كل موضع من مواضع القرآن ، ولما أريد جمعها جمعت في صورة من الروعة ليس لها مثال ، كقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ﴾ (٦) ، ولم يقل سبحانه : « وسبع أرضين » لما في ذلك من الخشونة واختلال النظم .

ومن ذلك لفظة « السماء » ذكرت تارة بصيغة الجمع وتارة بصيغة الإفراد ، لنكت مناسبة ، فحيث أريد العدد ، أتت بصيغة الجمع الدالة على سعة العظمة والكثرة ، كقوله : ﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (٧) ، وحيث أريد الجهة أتت بصيغة الإفراد كقوله : ﴿ ءَأَمِنْتُمْ مِّنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ ﴾ (٨) .

(٣) الزمر : ٢١

(٢) الزمر : ٢٧ - ٢٨

(١) الروم : ٥٥

(٦) الطلاق : ١٢

(٥) الغاشية : ١٤

(٤) سورة ق : ٣٧

(٨) الملك : ١٦

(٧) الحشر : ١

ومن ذلك « الريح » ذُكرت مجموعة ومفردة ، فتُذكر مجموعة في سياق الرحمة وتُفرد في سياق العذاب ، وذكر في حكمة ذلك أن رياح الرحمة مختلفة الصفات والمنافع ، ويقابل بعضها الآخر أحياناً ، لينشأ ريح لطيفة تنفع الحيوان والنبات ، فكانت في الرحمة رباحاً ، وأما في العذاب فإنها تأتي من وجه واحد ، ولا معارض لها ولا دافع ، وقد أخرج ابن أبي حاتم وغيره عن أبي بن كعب ، قال : كل شيء في القرآن من الرياح فهو رحمة ، وكل شيء من الريح فهو عذاب ، ولهذا ورد في الحديث : « اللَّهُمَّ اجعلها رباحاً ولا تجعلها ريحاً » وما عرج عن ذلك فهو لئكة أخرى (١) .

ومن ذلك أفراد « النور » وجمع « الظلمات » ، وإفراد « سبيل الحق » وجمع « سبل الباطل » لأن طريق الحق واحدة ، وطرق الباطل متشعبة متعددة ، ولهذا وحَّد « ولي المؤمنين » وجمع « أولياء الكافرين » لتعددكم كما في قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ ﴾ (٢) ، وقوله : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (٣) .  
ومن ذلك « المشرق والمغرب » بالإفراد والتثنية والجمع ، فالإفراد باعتبار الجهة والإشارة إلى ناحيتي الشرق والغرب كقوله : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ (٤) والتثنية باعتبار مطلعي ومغربي الشتاء والصيف كقوله : ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ ﴾ (٥) ، والجمع باعتبار مطلع كل يوم ومغربه ، أو مطلع كل فصل ومغربه كقوله : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ ﴾ (٦) .

\* \* \*

(١) فقد أفردت في قوله تعالى : ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ ﴾ (يونس : ٢٢) ، بوجهين : لفظي ، وهو المقابلة في قوله : ﴿ جَاءَهَا رِيحٌ عَاصِفٌ ﴾ ، ومعنوي وهو أن تمام الرحمة هنا ، إنما يحصل بوحدة الريح لا باختلافها ، فإن السفينة لا تسير إلا بريح واحدة من وجه واحد وإلا تعرضت للهلاك .

(٢) البقرة : ٢٥٧ (٣) الأنعام : ١٥٣ (٤) الزمل : ٩ (٥) الرحمن : ١٧

(٦) أَلَّفَ أبو الحسين الأخفش - كتاباً في الإفراد والجمع ، ذكر فيه جميع ما وقع في القرآن مفرداً ، ومفرد ما وقع جمعاً ، انظر « الإتيان » (١/١٩٣) - (والآية من سورة المعارج : ٤٠) .

#### ٤ - مقابلة الجمع بالجمع أو بالمفرد

مقابلة الجمع بالجمع تارة تقتضى مقابلة كل فرد من هذا ، بكل فرد من هذا ، كقوله : ﴿ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ ﴾ (١) ، أى استغشى كل منهم ثوبه ، وقوله : ﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ ﴾ (٢) أى كل واحدة تُرْضِعُ ولدها . وتارة يقتضى ثبوت الجميع لكل فرد من أفراد المحكوم عليه كقوله : ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً ﴾ (٣) ، أى اجلدوا كل واحد منهم ذلك العدد ، وتارة يحتمل الأمرين فيحتاج إلى دليل يُعَيِّنُ أحدهما .

أما مقابلة الجمع بالمفرد . فالغالب ألا يقتضى تعميم المفرد وقد يقتضيه كما فى قوله تعالى : ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مَسْكِينٍ ﴾ (٤) ، أى على كل واحد لكل يوم طعام مسكين .

\* \* \*

#### ٥ - ما يُظن أنه مترادف وليس من المترادف

من ذلك « الخوف والخشية » فالخشية أعلى من الخوف ، وهى أشد منه لأنها مأخوذة من قولهم : شجرة خشية : أى يابسة ، وهو فوات الكلية ، والخوف من قولهم : ناقة خوفاء : أى بها داء ، وهو نقص وليس بفوات ، كما أن الخشية تكون من عظم المخشى وإن كان الخاشى قوياً ، فهى خوف يشوبه تعظيم ، والخوف من ضعف الخائف ، وإن كان المخوف أمراً يسيراً ، ومادة الخشية : الخاء والشين والياء ، فى تصاريفها تدل على العظمة ، فالشيخ : السيد الكبير ، والخيش : الغليظ من اللباس ، ولذا وردت الخشية غالباً فى حق الله تعالى ، كقوله : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ﴾ (٦) ، وأما قوله تعالى : ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ﴾ (٧)

(٣) النور : ٤

(٦) الأحزاب : ٣٩

(٢) البقرة : ٢٣٣

(٥) فاطر : ٢٨

(١) نوح : ٧

(٤) البقرة : ١٨٤

(٧) النحل : ٥٠

فقد جاء فى وصف الملائكة بعد ذكر قوتهم وشدة خلقهم ، فالتعبير عنهم بالخوف لبيان أنهم وإن كانوا غلاظاً شداداً فهم بين يديه تعالى ضعفاء ، ثم أردفه بالفوقية الدالة على العظمة ، فجمع بين الأمرين الذين تتضمنهما الخشية دون إخلال بقوة بأسهم ، وهما خوفهم من ربهم مع تعظيمه سبحانه .

ومن ذلك « الشُّحُّ والبخل » فالشُّحُّ أشد من البخل لأنه بخل مع حرص ، وذلك فيما يكون عادة .

ومن ذلك « السبيل والطريق » فالسبيل أغلب وقوعاً فى الخير ، أما الطريق فلا يكاد يُراد به الخير إلا مقترناً بما يدل على ذلك من وصف أو إضافة كقوله : ﴿ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾ (١) قال الراغب فى مفرداته : السبيل : الطريق الذى فيه سهولة فهو أخص .

ومن ذلك « مد وأمد » قال الراغب : أكثر ما جاء الإمداد فى المحبوب كقوله : ﴿ وَأَمْدَدْنَاَهُمْ بِفَاكِهَةٍ ﴾ (٢) ، والمد فى المكروه كقوله : ﴿ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَدًّا ﴾ (٣) .

\* \* \*

## ٦ - السؤال والجواب

الأصل فى الجواب أن يكون مطابقاً للسؤال ، وقد يعدل فى الجواب عما يقتضيه السؤال تنبيهاً على أنه كان من حق السؤال أن يكون كذلك ، وهو المسمى بأسلوب الحكيم ، ويمثلون له بقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ ، قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ (٤) فقد سألوا رسول الله ﷺ عن الهلال : لِمَ يَبْدُو دَقِيقًا مِثْلَ الْخَيْطِ ثُمَّ يَزِيدُ قَلِيلًا حَتَّى يَمْتَلِئَ ، ثم لا يزال ينقص حتى يعود كما بدأ ؟ فأجيبوا ببيان حكمة ذلك تنبيهاً على أن الأهم السؤال عن ذلك لا ما سألوا عنه .

وقد يجئ الجواب أعم من السؤال للحاجة إليه كقوله تعالى : ﴿ قُلِ اللَّهُ يُجَبِّئُكُمْ

(٢) الطور : ٢٢

(٤) البقرة : ١٨٩

(١) الأحقاف : ٣٠

(٣) مريم : ٧٩

مَنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ﴿١﴾ فِي جَوَابٍ : ﴿ مِنْ يَنْجِيكُمْ مِنْ ظُلْمَاتِ الْبَرِّ  
وَالْبَحْرِ ﴾ (٢) .

وقد يجئ أنقص لاقتضاء الحال ذلك كقوله تعالى : ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ  
مِنْ تَلْقَاءِ نَفْسِي ﴾ (٣) فِي جَوَابٍ : ﴿ أَنْتَ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلَهُ ﴾ (٤) لِأَنَّ  
التَّبْدِيلَ أَسْهَلَ مِنَ الْإِخْتِرَاعِ ، وَقَدْ نَفَى إِمْكَانَهُ فَلَا إِخْتِرَاعَ أَوْلَى .

والسؤال إذا كان لطلب معرفة تعدى إلى المفعول الثاني تارة بنفسه وتارة  
بـ«عن» وهو أكثر كقوله : ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ﴾ (٥) ، وَإِذَا كَانَ لِاسْتِدْعَاءِ  
مَالٍ وَنَحْوِهِ فَإِنَّهُ يَتَعَدَّى بِنَفْسِهِ أَوْ بِ« مِنْ » وَبِنَفْسِهِ أَكْثَرَ كَقَوْلِهِ : ﴿ وَأَسْأَلُوا مَا  
أَنْفَقْتُمْ ﴾ (٦) ، وَقَوْلِهِ : ﴿ وَأَسْأَلُوا اللَّهَ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (٧) .

\* \* \*

## ٧ - الخطاب بالاسم والخطاب بالفعل

الاسم يدل على الثبوت والاستمرار ، والفعل يدل على التجدد والحدوث ،  
ولكل منهما موضعه الذي لا يصلح له الآخر ، فيأتي التعبير مثلاً في النفقة بالفعل  
كقوله : ﴿ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ ﴾ (٨) وَلَمْ يَلَمْ قُلُ « الْمُنْفِقُونَ » وَيَأْتِي  
التعبير في الإيمان بالاسم كقوله : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (٩)  
لأن النفقة أمر فعلي شأنه الحدوث والتجدد بخلاف الإيمان فإنه له حقيقة تقوم بدوام  
مقتضاها ، والمراد بالتجدد في الماضي الحصول مرة بعد أخرى ، وفي المضارع أن من  
شأنه أن يتكرر ويقع مرة بعد أخرى ، ومضمر الفعل في ذلك كمظهره ولهذا قالوا :  
إِنْ سَلِمَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَبْلَغَ مِنْ سَلَامِ الْمَلَائِكَةِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى : ﴿ إِذْ دَخَلُوا  
عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا ﴾ (١٠) فَالْنَّصْبُ عَلَى أَنَّهُ مُصَدَّرٌ سَدَّ مَسَدَ الْفِعْلِ ، وَأَصْلُهُ :

(٣) يونس : ١٥

(٢) الأنعام : ٦٣

(١) الأنعام : ٦٤

(٦) الممتحنة : ١٠

(٥) الإسراء : ٨٥

(٤) يونس : ١٥

(٩) الحجرات : ١٥

(٨) آل عمران : ١٣٤

(٧) النساء : ٣٢

(١٠) الذاريات : ٢٥

نسلم عليك سلامًا ، وهذه العبارة مؤذنة بحدوث التسليم منهم ، بخلاف رده : ﴿ قَالَ سَلَامٌ ﴾ (١) . فإنه معدول به إلى الرفع على الابتداء ، وخبره محذوف والمعنى : عليكم سلام . للدلالة على إثبات السلام ، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به ، أخذًا بأدب الله تعالى (٢) ، وهو أيضاً من إكرامه لهم .

\* \* \*

## ٨ - العطف

وهو ثلاثة أقسام :

- ١ - عطف على اللفظ : وهو الأصل .
- ٢ - وعطف على المحل : وجعل منه الكسائي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئُونَ ﴾ (٣) فجعل « الصابئون » عطفًا على محل « إن » واسمها ، ومحلها الرفع بالابتداء .
- ٣ - وعطف على المعنى : ومنه قوله تعالى : ﴿ لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ ﴾ (٤) في قراءة غير أبي عمرو بجزم « أكن » وخرجه في قراءة غير الخليل وسيبويه على أنه عطف على التوهم (٥) ، لأن معنى « لولا أخرتني فأصدق » ومعنى « أخرني أصدق » واحد ، كأنه قيل : إن أخرتني أصدق وأكن ، كما خرج الفارسي عليه قراءة قنبل : ﴿ إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ ﴾ (٦) بسكون الراء ، لأن « من » الموصولة فيها معنى الشرط .

واختلف في جواز عطف الخير على الإنشاء وعكسه ، فمنعه الأكثرون ، وأجازه

(١) الذاريات : ٢٥

(٢) في قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا حِيَّتُمْ بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوها ﴾ (النساء : ٨٦) .

(٣) المنافقون : ١٠

(٤) المائدة : ٦٩

(٥) هذه العبارة التي حكاها سيبويه عن الخليل ، وهي المنقولة في كتب التفسير : إنه جزم على توهم الشرط الذي يدل عليه التمني ، ولفظ « التوهم » غير لائق في تفسير القرآن والأولى أن يقال : عطف على المعنى ، كما هو صريح العبارة بعد .

(٦) يوسف : ٩٠

جماعة مستدلين بقوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ (١) عطف على « تؤمنون » فى الآية : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ \* تَوَّابُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ (٢) وخرجه الآخرون على أن « تؤمنون » بمعنى آمنوا ، فهو خبر بمعنى الإنشاء ، فصح عطف الإنشاء عليه . « وبشِّر » كأنه قيل : آمنوا وجاهدوا يثبتكم الله وينصركم ، وبشر يا رسول الله المؤمنين بذلك ، وفائدة التعبير بالخبر فى موضع الأمر الإيذان بوجوب الامتثال ، أى كأنه امتثل فهو يُخبر عن إيمان وجهاد موجودين .

واختلف أيضاً فى جواز العطف على معمولى عاملين ، واستدل المجيزون بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ \* وَفِي خَلْقِكُمْ وَمَا يَبُثُّ مِنْ دَابَّةٍ آيَاتٌ لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ \* وَاختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آياتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ (٣) ، فقوله : ﴿ وَاختلاف الليل والنهار ﴾ ، ﴿ آياتٌ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ من العطف على معمولى عاملين سواء نصبت أو رفعت ، فالعاملان إذا نصبت « إن » و« فى » أقيمت الواو مقامهما ، فعملت الواو الجر فى : ﴿ وَاختلاف الليل والنهار ﴾ والنصب فى « آيات » وإذا رفعت فالعاملان « الابتداء » و« فى » عملت الواو الرفع فى « آيات » والجر فى « اختلاف » ذكر هذا الزمخشري (٤) .

واختلف أيضاً فى جواز العطف على الضمير المجرور من غير إعادة الجار ، وخرج عليه المجيزون قراءة حمزة : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ﴾ (٥) بجر الأرحام عطفًا على الضمير ، وجعلوا منه قوله تعالى : ﴿ وَصَدَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفِّرَ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (٦) على أن « المسجد » معطوف على ضمير « به » .

\* \* \*

(٣) الجاثية : ٣ - ٥

(٢) الصف : ١٠ - ١١

(١) الصف : ١٣

(٤) انظر تفسير الآية فى « الكشاف » للزمخشري .

(٦) البقرة : ٢١٧

(٥) النساء : ١

## الفرق بين الإيتاء والإعطاء

وهناك فرق بين الإيتاء والإعطاء في القرآن ، قال الجويني (١) : « إن الإيتاء أقوى من الإعطاء في إثبات مفعوله ، لأن الإعطاء له مطاوع ، يقال : أعطاني فعطوت ، ولا يقال في الإيتاء : آتاني فأيتيت ، وإنما يقال : آتاني فأخذت ، والفعل الذي له مطاوع أضعف في إثبات مفعوله من الذي لا مطاوع له ، لأنك تقول : قطعته فانقطع ، فيدل على أن فعل الفاعل كان موقوفاً على قبول المحل ، لولاه لما ثبت المفعول ، ولهذا يصح : قطعته فما انقطع ، ولا يصح فيما لا مطاوع له ذلك ، فلا يجوز أن يقال : ضربته فانضرب أو ما انضرب ، ولا قتلته فانقتل أو ما انقتل ، لأن هذه أفعال إذا صدرت من الفاعل ثبت لها المفعول في المحل ، والفاعل مستقل بالأفعال التي لا مطاوع لها ، فالإيتاء إذن أقوى من الإعطاء . »

ولهذا شواهد ، فقد قال تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ (٢) لأن الحكمة إذا ثبتت في المحل دامت ، وهي عظمة الشأن ، وقال : ﴿ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ ﴾ (٣) ، وقال : ﴿ إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكُوْثَرَ ﴾ (٤) لأن بعد الكوثر منازل أعلى ، حيث يكون الانتقال إلى ما هو أعظم منه في الجنة ، وقال : ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ ﴾ (٥) لأن الجزية موقوفة على قبول منا ، وهم لا يؤتونها إيتاءً عن طيب قلب ، وإنما عن كره ، وقد عبر بالإيتاء في جانب المسلمين بالنسبة إلى الزكاة ، وفي ذلك : إشارة إلى أن المؤمن ينبغي أن يكون إعطاؤه للزكاة بقوة ، لا يكون كإعطاء الجزية .

\* \* \*

### لفظ « فعل »

يجيء لفظ « فعل » كناية عن أفعال متعددة لا للدلالة على فعل واحد ، فيفيد

(٢) البقرة : ٢٦٩

(١) انظر : البرهان « للزركشي ( ٨٥ / ٤ ) .

(٥) التوبة : ٢٩

(٤) الكوثر : ١

(٣) الحجر : ٨٧

بهذا الاختصار ، كقوله تعالى : ﴿ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (١) فإنها تشمل كل منكر لا يتناهون عنه ، وقوله : ﴿ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ﴾ (٢) أى فإن لم تأتوا بسورة من مثله ولن تأتوا بسورة من مثله .

وحيث أطلقت في كلام الله فهي محمولة على الوعيد الشديد كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ﴾ (٣) ، وقوله : ﴿ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ ﴾ (٤) .

\* \* \*

### لفظ « كان » (٥)

وردت « كان » في الإخبار عن ذات الله وصفاته بالقرآن كثيراً وقد اختلف النحاة وغيرهم في أنها تدل على الانقطاع ، على مذاهب :  
أحدها : أنها تفيد الانقطاع لأنها فعل يُشعر بالتجديد .

والثاني : لا تفيده ، بل تقتضى الدوام والاستمرار ، وبه جزم ابن معطى (٦) في ألفيته ، حيث قال :

\* وكان للماضى الذى ما انقطعا \*

وقال الراغب في قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴾ (٧) نبه بقوله : « كان » على أنه لم يزل منذ أوجد منطويًا على الكفر .

والثالث : أنه عبارة عن وجود شيء في زمان ماض على سبيل الإبهام . وليس فيه دليل على عدم سابق ، ولا على انقطاع طارئ ، ومنه قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ

(١) المائدة : ٧٩ (٢) البقرة : ٢٤ (٣) الفيل : ١

(٤) إبراهيم : ٤٥ (٥) انظر : « البرهان » ( ١٢١ / ٤ ) .

(٦) هو الشيخ زين الدين يحيى بن عبد المعطى المتوفى سنة ٦٢٨ هجرية ، سماها « الدرّة الألفية » وأولها : يقول راجى ربه الغفور يحيى بن معطى بن عبد النور وإليها أشار ابن مالك بقوله : فائقة ألفية ابن معطى .

(٧) الإسراء : ٢٧

عَفُورًا رَحِيمًا ﴿١﴾ قاله الزمخشري في قوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ (٢) عند تفسيره للآية في « الكشاف » .

وذكر ابن عطية في سورة الفتح أنها حيث وقعت في صفات الله فهي مسلوبة الدلالة على الزمان .

والصواب من هذه المقالات مقالة الزمخشري ، وأنها تفيد اقتران معنى الجملة التي تليها بالزمن الماضي لا غير ، ولا دلالة لها نفسها على انقطاع ذلك المعنى ولا بقاءه ، بل إن أفاد الكلام شيئاً من ذلك كان لدليل آخر .

وعلى هذا يُحمل معناها فيما وقع في القرآن من إخبار الله تعالى عن صفاته وغيرها بلفظ « كان » كثيراً ، مثل قوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا ﴾ (٣) ، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ وَأَسْعًا حَكِيمًا ﴾ (٤) ، ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (٥) ، ﴿ وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ ﴾ (٦) ، ﴿ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴾ (٧) .

وحيث أخبر الله بها عن صفات الأدميين فالمراد التنبيه على أنها فيهم غريزة وطبيعة مركوزة في النفس كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولًا ﴾ (٨) ، وقوله : ﴿ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴾ (٩) .

وقد تتبع أبو بكر الرازي استعمال « كان » في القرآن ، واستنبط وجوه استعمالها فقال : « كان » في القرآن على خمسة أوجه :

بمعنى الأزل والأبد ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ (١٠) .  
وبمعنى المعنى المنقطع ، كقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ ﴾ (١١)  
وهو الأصل في معاني « كان » كما تقول : كان زيد صالحاً أو فقيراً أو مريضاً أو نحوه .

(٣) النساء : ١٤٨

(٢) آل عمران : ١١٠

(١) الأحزاب : ٥٠

(٦) الأنبياء : ٨١

(٥) الأحزاب : ٥٩

(٤) النساء : ١٣٠

(٩) الأحزاب : ٧٢

(٨) الإسراء : ١١

(٧) الأنبياء : ٧٨

(١١) النمل : ٤٨

(١٠) النساء : ١٧٠

وبمعنى الحال ، كقوله تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ ﴾ (١) ، وقوله : ﴿ إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا ﴾ (٢) ، وبمعنى الاستقبال ، كقوله تعالى : ﴿ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَتْ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ﴾ (٣) .  
وبمعنى « صار » كقوله : ﴿ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤) .

وتأتى « كان » فى النفى ويكون المراد بها نفى صحة الخبر لا نفى وقوعه ولذا تقول بمعنى « ما صح وما استقام » كقوله تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أُسْرَى حَتَّى يَبْخُنَ فِي الْأَرْضِ ﴾ (٥) ، وقوله : ﴿ مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ ﴾ (٦) ، وقوله : ﴿ وَلَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُمْ مَا يَكُونُ لَنَا أَنْ نَتَكَلَّمَ بِهَذَا ﴾ (٧) .

\* \* \*

### لفظ « كاد »

وللعلماء فى « كاد » مذاهب :

أحدها : أنها كسائر الأفعال نفياً وإثباتاً ، فإثباتها إثبات ونفيها نفى ، لأن معناها المقاربة ، فمعنى كاد يفعل : قارب الفعل ، ومعنى ما كاد يفعل : لم يقاربه ، فخيرها منى دائماً ، ولكن النفى فى الإثبات مستفاد من معناها ، لأن الإخبار بقرب الشيء يقتضى عرفاً عدم حصوله ، وإلا لم يتجه الإخبار بقربه ، أما إذا كانت منفية فلأنه إذا انتفت مقاربة الفعل اقتضى عقلاً عدم حصوله ، ويدل له قوله تعالى : ﴿ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكْدُ بِرَأْسِهَا ﴾ (٨) ولهذا كان أبلغ من قوله : « لم يرها » لأن من لم ير قد يقارب الرؤية .

والثانى : أنها تختلف عن سائر الأفعال إثباتاً ونفياً ، فإثباتها نفى ، ونفيها إثبات ، ولذا قالوا : إنها إذا أثبتت نفت ، وإذا نفت أثبتت ، فإذا قيل : كاد يفعل ،

(١) آل عمران : ١١٠ (٢) النساء : ١٠٣ (٣) الإنسان : ٧

(٤) « البرهان » للزركشى ( ٤ / ١٢٧ ) - ( والآية من سورة البقرة : ٣٤ ) .

(٥) الأنفال : ٦٧ (٦) التوبة : ١٧ (٧) النور : ١٦

(٨) النور : ٤٠

فمعناه أنه لم يفعله بدليل قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتَنُونَكَ ﴾ (١) لأنهم لم يفتنوه ، وإذا قيل : لم يكذب يفعل ، فمعناه أنه فعله بدليل قوله تعالى : ﴿ فَذَبَّحُوا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ (٢) لأنهم فعلوا الذبح .  
 والثالث : أنها فى النفى تدل على وقوع الفعل بعسر وشدة كقوله : ﴿ فَذَبَّحُوا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

والرابع : التفصيل فى النفى بين المضارع والماضى ، فنفى المضارع نفى ، ونفى الماضى إثبات ، يدل على الأول قوله : ﴿ لَمْ يَكْذِبْ رَأَاهَا ﴾ مع أنه لم ير شيئاً ، ويدل على الثانى قوله : ﴿ فَذَبَّحُوا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ مع أنهم فعلوا .  
 والخامس : أنها فى النفى تكون للإثبات إذا كان ما بعدها متصلاً بما قبلها ومتعلقاً به ، كقوله : ما كادت أصل إلى مكة حتى طفت بالبيت الحرام ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَذَبَّحُوا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾ .

\* \* \*

### لفظ « جعل »

تأتى « جعل » فى القرآن لعدة معان :

أحدهما : بمعنى « سمي » كقوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ (٣)  
 أى سموه كذباً ، وقوله : ﴿ وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَانًا ﴾ (٤)  
 على قول ، ويشهد له قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى ﴾ (٥) .

الثانى : بمعنى « أوجد » وتتعدى إلى مفعول واحد ، والفرق بينهما وبين الخلق ، أن الخلق فيه معنى التقدير ، ويكون عن عدم سابق حيث لا يتقدم مادة ولا سبب محسوس ، بخلاف الجعل بمعنى الإيجاد ، قال تعالى : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ

(٣) الحجر : ٩١

(٢) البقرة : ٧١

(١) الإسراء : ٧٣

(٥) النجم : ٢٧

(٤) الزخرف : ١٩

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴿١﴾ ، وإنما الظلمات والنور تنشأ عن أجرام توجد بوجودها ، وتعدم بعدمها .

الثالث : بمعنى النقل من حال إلى حال والتصيير ، فتتعدى إلى مفعولين : إما حساً كقوله تعالى : ﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا ﴾ (١) ، وإما عقلاً كقوله : ﴿ أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ﴾ (٢) .

الرابع : بمعنى الاعتقاد ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ ﴾ (٤) .

الخامس : بمعنى الحكم بالشيء على الشيء ، حقاً كان أو باطلاً ، فالحق كقوله تعالى : ﴿ إِنَّا رَادُّهُ إِلَيْكَ وَجَاعَلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (٥) ، والباطل ، كقوله : ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا ﴾ (٦) .

\* \* \*

### « لعل » ، و« عسى »

تستعمل « لعل » و« عسى » للرجاء والطمع في كلام المخلوقين حيث يشك الخلق في الأمور الممكنة ولا يقطعون على الكائن منها ، أما بالنسبة إلى الله تعالى : ( أ ) فقيل : هما يدلان على الحصول والوجوب ، لأن نسبة الأمور إلى الله نسبة قطع ويقين .

( ب ) وقيل : إنهما للترجي على بايهما ، ولكن الترجي يكون بالنسبة إلى المخاطبين .

( ج ) وقيل : إن « عسى » و« لعل » في كثير من المواضع تكون للتعليل .

قال تعالى : ﴿ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴾ (٧) ، وقال سبحانه : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٨) .

\* \* \*

(٣) سورة ص : ٥

(٢) البقرة : ٢٢

(١) الأنعام : ١

(٦) الأنعام : ١٣٦

(٥) القصص : ٧

(٤) الأنعام : ١٠٠

(٨) المائدة : ١٠٠

(٧) الإسراء : ٧٩